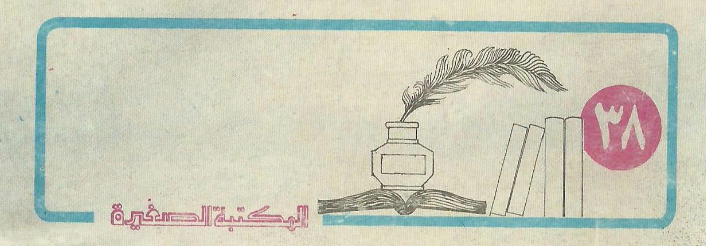
اعلام الادب العربي في شبه القارة الهندية الباكستانية

أبو العلاء اللاهوري

الدكتور ظهور أحمد أظهر



المكتبة الصّغيرة

٣٨

أبو العلاء اللاهوري

حياته... نثره... شعره

الدكتور ظهور أحمد أظهر
جامعة بنجاب - لاهور - باكستان

الطبعـــة الثانيـــة

المحرم ١٤٠٤هـ
اكتوبر ١٩٨٣م

منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

ص.ب ١٥٩٠
الرياض ١١٤٤١

الغلاف من تصميم الفنان : محسن منصور

أبو العلاء اللاهوري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(١)

إن اللغة العربية وآدابها في شبه القارة ـ الهندية الباكستانية ـ لفي حاجة إلى دراسة شاملة ، كما أن أعلام الأدب العربي من الشعراء والأدباء والعلماء في هذه المنطقة يستحقون كل عناية واهتمام من الدارسين والباحثين ، وذلك لأن تاريخ هذه اللغة وآدابها في هذه البقعة من الأرض حافل بالأمجاد والآثار التي لا يمكن تجاهلها أو الإغماض عنها ، وإنما هي تلفت أنظارنا إليها وتدعونا إلى الدراسة والاطلاع،وهي التي يجب أن تكون موضع الإعجاب والتقدير والافتخار لنا جميعاً ، وخاصة بالنسبة إلى مسلمي شبه القارة .

إن هذه الأمجاد الخالدة التي حققها علماء اللغة العربية في شبه القارة ، وهذه الآثار الأدبية الباقية التي أنتجها هؤلاء العلماء ، سواء كانت في حقل العلوم الأدبية أو الدينية لم تزل ولا تزال مخمولة مجهولة على الكثيرين من إخواننا العرب ، ولم تلفت أنظار علمائهم الباحثين والمحققين إلا ما شاء الله ، فلم تُتَح لهم الفرصة المباشرة لدراسة هذه الآداب أو التعريف بأعلامها من الشعراء والأدباء إلا قليلا نادراً ، ولكن ليس معنى ذلك أن إخواننا الباحثين العرب يجهلون اللغة العربية

وآدابها فى شبه القارة جهلا تاما ، أو أنهم يحطون من شأنها ويغضون عن أعلامها أو يهملونهم ويستخفون بأعمالهم ، كلا ! وأنى لهم ذلك ، وإنما هى تراثهم يجب أن يقدروها وهى بضاعتهم يجب أن ترد اليهم ! ولكننا نريد أن نقول : بأن الظروف والأوضاع الراهنة لم تمنح لأحد منهم الفرصة للدراسة الشاملة لهذه الآداب العربية والتعريف بأعلامها على نطاق أوسع .

وكذلك فإن الأدباء والكتاب من أهل شبه القارة ، الذين تثقفوا ثقافة عربية وأجادوا لغة الناطقين بالضاد وأتقنوها ، مع بُعد الدار وعدم الصلة والعلاقة ، ثم أسهموا فى الآداب العربية بمؤلفاتهم القيمة وبحوثهم الثمينة التى اعترف بها وبمؤلفيها إخواننا العرب وعرفوا فضلهم وقدروا جهودهم ، ان هؤلاء الأدباء والكتاب أيضاً لم يحفلوا بالآداب العربية فى بلادهم ولم يحاولوا التعريف بأعلامها من الشعراء والأدباء والمؤلفين بالعربية إلا قليلا نادراً مثل الأديب العلامة والشاعر المفلق (غلام علي آزاد البلكرامي) فى (سبحة المرجان) والعالم التقي الشريف عبد الحي الحسني فى كتابيه : (الثقافة الإسلامية فى الهند) و (نزهة الخواطر) .

وهذا ما كتب بالعربية ، أما ما كتب باللغة الأردوية أو الانجليزية عن الآداب العربية فى شبه القارة فإنه أيضاً ليس كثيراً ، وإنما هى مجهودات متواضعة قام بها بعض الأفراد أو المؤسسات ، فأما المجهودات الجماعية التى قامت بها بعض المعاهد التعليمية أو المؤسسات العلمية فمنها (تاريخ الآداب

العربية فى شبه القارة) وهو جهد متواضع قام به لفيف من الأساتذة الجامعيين وقد قام بطبعه ونشره جامعة بنجاب بلاهور وهو باللغــة الأردوية . ومن المجهــودات الفــردية ما قام به الدكتــور زبير أحمــد ، وقدمه كبحث للدكتوراه فى جامعــة كيمبرج ثم أضاف إلى ذلك من المعلومات القيمة ونشره باسم (إسهام الهند فى الآداب العربية) وهو بالانجليزية،وقد ترجم إلى العربية وطبع فى العراق،وقد أتيح لنــا النظر فى هــذه الترجمة فلم تعجبنا لأن المترجم الفاضل ـ كما يبدوـلم يكن على معرفة جيدة باللغــة الانجليزية ،كما أنه أخطأ فى كثير من المواضع فى نقل الأسماء من الانجليزية الى العربية وزاد الطين بلة بما أضافه الطابع والنــاشر من الأخطاء الفــاحشة التى لا تخلو منها صفحة !

وهذه المؤلفات كلها إنما هى تتناول تاريخ العلوم والآداب العربيــة ، ومن ضمنها تراجم الأعــلام من الشعراء والأدباء والمؤلفين . وأما الكتب المستقلة والتراجم الفردية المستوعبة فلم يقم بها أحد فيما نعلم،ولم يفرد أحد منهم كتاباً مستقلا عن أحد من العلماء الأعلام وأعيان الفضلاء والشعراء ،ونحن ـ بدورنا ـ نعــتزم على التعــريف بهم وهى سلسلة نبدأها بالشعراء الأعــلام ، ونســأل الله عز وجل التوفيق الشــامل لانجاز هذه السلسلة وذلك بالتشجيع الفائق والمساعدة الأخوية التى تلقيناها من الأخ الفاضل والأســتاذ الــكريم عبد العزيز الرفاعي صاحب دار الرفاعي ورائد المكتبة الصغيرة بالرياض، حفظه الله تعالى ووفقه لما يقوم به من الخدمات الجليلة من أجل لغة الضاد وآدابها ! آمين !

(٢)

وقد اخترنا الشـاعر أبا العلاء عطاء بن يعقوب الغزنوي اللاهوري ليكون نقطة الانطلاق والبداية لهذه السلسلة المفيدة عن أعـلام الآداب العربيـة في شـبه القـارة وذلك لسببين : أولهما أنني كنت قد سُئلتُ وأنا في مصر سنة ١٩٧٧م أن ألقي محاضرة وجيزة،أعرّف فيها بشاعر من شعراء شبه القارة فاخترت هذا الشاعر العظيم الذى ولد ونشأ بعيداً عن ينابيع اللغة العربيـة وموطنها الأصلي ، إلا أنه أجادها وأتقنها ثم نظم وكتب بها على الأساليب العربية الأصيلة المتداولة في ذلك العصر في كل مكان من العالم الإسلامي من الخليج إلى المحيط وفي الأندلس والهنـد وبلاد ما وراء النهر ، تلك الأسـاليب الإنشائية النثرية البديعة التي كان الكتاب والعلماء يتفننون بها ، ويُبرزون براعتهم فيها،أو المحسنات البديعية في الشعر العربي التي كان الشعراء بها مولعين ، ويأتون فيها بالعجائب والغرائب . فاعددت محاضرة وجيزة عن هذا الشـاعر،وكانت عبارة عن ثلاث صفحات فقط ! فألقيتها في إحـدى المجـالس العلمية هناك،ثم نشرت تلك المحـاضرة في إحـدى المجـلات العربية القاهرية ، وقد اتضح لى وأنا أعدها ، بأن أبا العلاء اللاهوري يحتاج إلى بحث أطول وأعمق وأنه لا يكفيه مثل هذه المحاضرة الموجزة العابرة المستعجلة .

وأما السبب الثاني الذي جعلني أختار أبا العلاء اللاهوري بالذات دون غيره من الشعراء والأدباء والعلماء الأعلام ، فهو أنه أول شاعر في شبه القارة ـ ولعله في تاريخ آداب اللغـة

العربية على الإطلاق ـ الذى أنتج ثلاثة دواوين بثلاث لغات ، ومن بين هذه الدواوين الثلاثة ديوان شعره باللغة العربية !

(٣)

وما دامت هذه المحاولة هى الخطوة الأولى التى ننطلق بها فى طريق التعريف بأعلام الآداب العربية فى شبه القارة فيجب اذن أن نلم الماماً بقصة وصول اللغة العربية ودخولها فى شبه القارة وتطور ادابها فيها ، كما يجب أن نعرف شيئا قليلا عن مدينة لاهور ـ قلب باكستان الخفّاق ومقر أبى العلاء ومدفنه ـ تلك المدينة التاريخية التى قدر لها أن تكون عاصمة الغزنويين ، وتحتل الصدارة بين المراكز الثقافية الإسلامية فى شبه القارة ـ وذلك لكي نتمكّن من إدراك الظروف والأحوال والخلفيّة التاريخية التى أنتجت الأعلام من الشعراء والعلماء من أمثال أبى العلاء اللاهوري ولكي نستطيع أن نفهم أدبه حق الفهم ونقدره حق التقدير !

إن الصلات بين البلاد العربية وشبه القارة أو بعبارة أخرى العلاقات بين اللغة العربية وشبه القارة الهندية الباكستانية قديمة جداً ، قدم التاريخ نفسه ! فقد كان التجار العرب يختلفون بالبضائع بين بلادهم وبلاد شبه القارة فى عصور متقدمة جداً ، وكانوا يغدون ويروحون ويحملون معهم ، الى جانب البضائع التجارية من المعلومات والمواد الثقافية ، وهذا التبادل التجاري والثقافي قد ترك شيئاً كبيراً من الآثار ، مما لا يمكن إنكاره أو تجاهله ، ويدل على ذلك

ما نجده من الكلمات والمفـردات المعربة الهنـدية الأصـل ، وخاصة المفـردات التي جاءت كأسماء المنتـوجات والبضـائع التجارية الهندية في الأدب العربي الجاهلي ، شعره ونثره .

وهذا عن العصـور التي سبقت الإسـلام ، وأما العلاقات بين البلاد العربية وشبه القارة بعدها فمما لا يحتاج الى وضوح أو دليل ، إنما هي حوادث معلومة ووقائع معروفة قد سجَّلها التاريخ ، ولا تزال موضع الاهتمام والعناية للباحثين والعلماء فمن المعلوم أن الفتح الاسلامي العظيم قد تم على يد القـائد المسلم الباقع محمد بن القاسم الثقفي ، فدخل الاسلام في هذه البلاد منتصراً وكقوة أخلاقية خلابة ، ودخلت معه العربية في نفس الوقت ، ولم تلبث أن تصبح لغة البلاد الرسمية ولم تزل تحتل مكان الصدارة في مناطق باكستان الحالية حتى أزاحتها الفارسية عنه فحلت محلها وسدت طريقهـا وذلك في أخـريات العصـر الغزنوي !

(٤)

وقد كانت الدولة الإسلامية الغزنوية ، التي قضت على الحكم القرامطي في السند والمولتان ، دولة العلم والأدب والثقـافة عُنيت قبـل كل شيء بالعـلوم والآداب وبالعلمـاء والأدباء والشـعراء والفنانين ، إلا أنهـا هي أول دولة من بين الدول الإسلامية التي تـبنَّت الثقافتين العربية والفارسية في نفس الوقت ، والتي اهتمت بلغة ثانية إلى جانب العربية فإن اللغة

الفارسية وإن كانت قد أخذت تطل برأسها من مجاهل التخلف إلى معالم الحضارة فى عصر الملوك السامانيين ، إلا أن المكانة التى أتيحت لها فى العصر الغزنوي لم تتح لها فيما سبق من العصور .

ففى هذا العصر ـ عصر الدولة الغزنوية ـ كانت الثقافة العربية قد بدأت تضعف ، وتتخلف فى بعض العواصم الإسلامية ، ومنها غزنة أو غزنى عاصمة السلاطين الغزنويين ، وأخذ المسلمون ـ العرب وغيرهم فى هذه البلاد النائية عن موطن العربية ومهدها العريق ـ يبتعدون عن الثقافة العربية شيئاً فشيئاً ويُعنون بالثقافة الفارسية أكثر فأكثر ، فكأن هذه الدولة تمتاز باهتمامها بالثقافتين ومن ثم عرفت بالدولة (ذات اللغتين) العربية والفارسية ، ولم تزل العربية هى اللغة الرسمية للبلاد ولغة الديوان الملكي فى العصر الغزنوي الأول ، ولكن اللغة الفارسية كانت قد بدأت تحتل مكانتها كلغة التخاطب والمحادثة ، لأنها أخف وأسهل من العربية التى كانت قد فقدت صلاتها المباشرة بينابيعها الأصيلة فى البلاد العربية،فضعفت عراها وانخفض مستواها ، وازداد الطين بلة عندما انتشرت الأساليب البديعية المتكلفة الثقيلة الجوفاء فى الشعر والنثر معاً،وصعب التعبير بها على العقول البشرية،وضلت المعانى فى ترهات السجع والقافية !!

إن اللغة الفارسية وإن كانت قد أصبحت لغة التخاطب والحديث فى هذا العصر ، وبدأ الشعراء والأدباء يتخذونها أداة للتعبير والبيان ، إلا أن كبار العلماء الأفاضل كانوا

يفضلون الإنشاء والتأليف فى اللغة العربية من أمثال العالم العلامة أبى ريحان محمد بن أحمد البيروني ، والشيخ العتبي صاحب التاريخ اليميني،وغيرهما،وأما الشعراء فى (غزنة) العاصمة الأولى للغزنويين فكانوا يقولون الشعر باللغتين العربية والفارسية ، ومن ثم معظم الشعراء فى هذا العصر قد عرفوا (بشعراء ذوى اللسانين !) وأما الشعراء الغزنويون الذين عاشوا فى (لاهور) العاصمة الثانية للغزنويين فانهم قد أضافوا إلى العربية والفارسية لغة ثالثة وهى الهندية التى امتازت فيما بعد،فعرفت باللغة الأردوية وهى لغة باكستان القومية الآن !

(٥)

وأما مدينة لاهور التى إليها ينتسب أبو العلاء عطاء بن يعقوب اللاهوري ، فهي مدينة إسلامية عريقة وقد كانت ولا تزال ـ كما قلنا ـ مركزاً ثقافياً إسلامياً وقلباً خفّاقاً لباكستان ولمسلمى شبه القارة جميعاً،لا بل لمسلمى العالم جميعاً !! وهى قديمة قدم التاريخ ، وقد وصلتنا معلومات أسطورية عن بُناتها وبِنائها،وعن عمرانها وسكّانها وكلها تشير الى أن هذه المدينة كانت عامرة قبل قرون من ميلاد المسيح عليه السلام .

وقد أصبحت مدينة إسلامية منذ الفتح الاسلامي لها على أيدى السلاطين الغزنويين ، فمنذ تلك اللحظة السعيدة أصبحت مدينة لاهور مدينة إسلامية ومركزا هاما للثقافة

الإسلامية وحصنا حصينا للأمة الإسلامية وأنصارها وزعمائها وقادتهـا ، ومنـذ ذلك اليـوم يبـدأ تاريخ لاهور الثقـافي الإسلامي ، ومنذ ذلك الحين صارت عاصمة ثانية للغزنويين ، كمـا أنهـا ظلت عاصمة ثانيـة للأباطرة المغول ، وهى الآن عاصمة اقليم بنجـاب الذى هو أكبر أقاليم باكسـتان ، كما كانت عاصمة لهذا الاقليم فى عهـد الاستعمار البريطـاني ! وفيها جامعة بنجاب أكبر جامعات باكستان وأقدمها وأشهرها، وهى تُعرف بمدينة الأضـواء والأنـوار ومدينـة الـكليات والمعاهد التعليمية ، كما أنهـا تُعرف بالعـاصمة الثقافيـة لجمهورية باكستان الإسلامية وقلبها الخفّاق ! وفيها تمّ اتخاذ القرار التاريخي الإسلامي لإنشـاء باكسـتان ، وفيها عُقد مؤتمـر القمـة الاسـلامي الثاني فى ١٩٧٤م ، وفيها ضريح شاعر الإسلام العلامة (محمد اقبال) الذى رأى حلم باكستان والذى نادى بالنهضة الإسلامية ووحدة العالم الإسلامي !

ظهور أحمد أظهر
قسم اللغة العربية
جامعة بنجاب بلاهور

لاهور فى ١٥ يوليو ١٩٨١م

حياة أبي العلاء اللاهوري

١ ـ أسرته .
٢ ـ مولده .
٣ ـ المنصب والمحنة .
٤ ـ بين الأهل والأصدقاء .
٥ ـ وفاته .

حياة أبي العلاء اللاهوري

أسرته :

ويصرح المؤرخ الإيراني الشهير (رضا قلى خان هدايت) فى كتابه الموسوم بمجمع الفصحاء الذى خصّصه لتراجم الأعيان من شعراء اللغة الفارسية وأدبائها بأن الشيخ الفاضل العميد الأجل أبا العلاء عطاء بن يعقوب الغزنوي ثم اللاهوري كان ينتمى إلى أصل عربي ، وكان آباؤه قد هاجروا من البلاد العربية فى عهد مبكر جداً،ونزلوا بمدينة (الري) من مدن إيران القديمة،ومراكزها الثقافية العامرة،فاستوطنوها وأقاموا بها مدة من الزمان ثم هاجروا منها إلى غزنة عاصمة الملوك الغزنويين ، وقد كانت هذه الأسرة العربية الكريمة أسرة ذات علم وفضل

وشرف ونباهة وطيب ذكر ، وكانوا فضلاء أجلاء ولم يزالوا يكرمون أينما ذهبوا ، ويحتلون المناصب الحكومية نسلاً بعد نسل ، ويكتسبون السمعة الطيبة وأطيب الذكر كالكُتاب المترسلين الناجحين النابهين .

ولدى وصول هذه الأسرة الفاضلة إلى غزنة استقبلها الملوك الغزنويون ، ورحبوا بها كل ترحيب وفوضوا إلى رجالها الوظائف الهامة والمناصب الحكومية ، فقامت هذه الأسرة النابهة بما فوض إليها من المهمات حق القيام واكتسبت بذلك ثقة الملوك وإعجابهم بها .

ويذكر ياقوت الحموي بأن أحد أبناء العم لأبى العلاء،كان قد نال ثقة الملك،وحاز إعجابه حتى احتل وظيفة (الكوتوال) وهى كلمة هندية الأصل ؛ ومعناها:المحافظ،أو المحتسب،إلا أن الغزنويين كانوا يستعملون هذه الكلمة لنائب الملك على قلعة أو مدينة،وإليه يشير ياقوت حيث

يقول :

« عطاء بن يعقوب بن نأكل ، أحد أعيان فضلاء غزنة ، وهو من أولاد الثناء ، وكان ابن عمه (الكوتوال) وهو مستحفظ القلعة ، تلقب بهذا وهو بالهندية ، وإليه مصادر الأمور ومواردها عند غيبة سلطان البلاد ! »

فإنّ هذا إن دَلَّ على شيء فإنما يدلُّ على نباهة هذه الأسرة العربية ونبلها وكرمها،وكفاءة رجالها لتحمّل المسئوليات والمهمات من شئون الدولة .

مولده :

إن المصادر والمراجع ـ العربية منها والفارسية ـ عن حياة أبي العلاء لا تصرح بمولده ومنشئه أكان ذلك بالري أو غزنة ؟ والأول هو الأرجح وذلك لسببين: أولهما أن المؤرخ (هدايت) يترجم

له فى كتابه تحت عنوان (عطاء الرازي) ويقول: إن بعض الناس يعتقدون بأن (العميد عطاء) و (الأستاذ عطاء الرازي) شخصان مختلفان ، وهو خطأ لأنهما شخص واحد،وهو الأستاذ العميد الأجل أبو العلاء عطاء بن يعقوب،والسبب الثانى أن كتب التراجم المتأخرة أو بالأحرى أن نقول:إن المؤلفين من المناطق والبلاد التى عاش فيها أبو العلاء فى طوره المتأخر من حياته يذكرونه كأبى العلاء عطاء الغزنوي . ويهملون نسبة (الرازي) فمعنى ذلك أن (عطاء بن يعقوب) كان ينتسب أولاً إلى الري فيعرف بالرازي . ثم إذا هاجر إلى غزنة ومنها إلى لاهور عرف بالغزنوي أو اللاهوري،وأما النسبة الأولى التى عرف بها وهو بالري بين الشعراء الإيرانيين فقد أهملها هؤلاء المؤرخون إهمالا . وإذا كان كذلك فبالتالى أن أبا العلاء كان ولد بالري حيث كانت أسرته تقيم بها قبل الهجرة إلى غزنة ثم إلى لاهور !

المنصب والمحنة :

ويبدو أن أبا العلاء ، كباقي أعضاء أسرته الفضلاء ، كان قد حظي بثقة الغزنويين ، وكيف لا وقد كان على قدم راسخة فى الكتابة والإنشاء وكان يجيد اللغتين العربية والفارسية شعراً ونثراً . وفوق ذلك كله فقد كان من أسرة الفضلاء والوجهاء النابهين، فتولى المناصب والوظائف الحكومية الكبيرة فظل يتقلب فى الوظائف وينقل من مكان إلى آخر، ومن وظيفة إلى أخرى لمدة لا يعلمها إلا الله . ثم لم يلبث أن نزل به العتاب الملكي وحدث به مثلما حدث بصديقه الوفي (مسعود سعد سلمان اللاهوري) فيما بعد فعزله السلطان إبراهيم الغزنوي على تهمة التمرّد والعصيان والتآمر ضده . وحبسه فى حصن من حصون الهند فى سنة ٤٦٣ هـ . وذلك لأن المؤرخين وأصحاب التراجم يقولون: إن السلطان إبراهيم الغزنوي عندما زار لاهور ليتفقد المناطق الهندية من المملكة الغزنوية كان أبو العلاء عطاء

إذ ذاك قد أكمل السنة الثامنة من حبسه ، ومن المعلوم أن السلطان المارّ ذكره تبوأ العرش وتسلّم مقاليد الحكم فى ٤٥١ هـ ، وورد فى المناطق الهندية من مملكته فى سنة ٤٧٢ هـ ، فعلى هذا الأساس يجب أن يكون أبو العلاء قد وضع فى السجن عام ٤٦٣ هـ لتكتمل بذلك مدة ثماني سنوات من الحبس فى سنة ٤٧٢ هـ ، ويؤيد ذلك ما قاله الشاعر أبو العلاء نفسه فى قصيدة له بالفارسية يذكر فيها آلام السجن وشدائد القيد ، ووطأته ويستعطف الملك ليفرج عنه ، ومما جاء فى هذه القصيدة قوله :

زَان بَراهيم باغ كشت آتش
زين براهيم خُلد كَشت جحيم

بى كُناه مانده هشت سال بهند
جُون كُنِه كَار دَر عَذَابِ أليم

ومعناه : «أن هناك إبراهيمان أحدهما إبراهيم خليل الله عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه الذى صارت النار برداً وروضة بسببه ، وهذا

إبراهيم آخر وهو إبراهيم الغزنوي الذى صارت جنة الخلد جحيماً بسببه ، حيث ألقانى فى جهنم الحبس والقيد وأنا لا ذنب لى ، أنا برىء مما يرموننى به،وقد بقيت سجيناً فى محبس الهند لمدة ثمانى سنوات أكابد الآلام كما يكابدها العصاة المجرمون ! »

وفى قصيدة أخرى له بالفارسية أيضاً ينفى عنه تهمة العصيان والتمرد ، ويقول:إنه بهتان عظيم اختلقه الوشاة القساة من أعدائه،ويحدثنا بأنه لم يقترف أي ذنب ، وإنما كانت منه زَلَّة جعلها الحاسدون الجناة عصياناً وتمرداً ، مما سبب العتاب الملكي الذى نزل به،وجرّ عليه هذا العذاب الأليم ، وأن مَثَلَهُ مَثَلُ آدم ومَثَلُ أعدائه الحساد مَثَلُ إبليس اللعين الذى أزلّ آدم عليه السلام عن الجنة،فأخرجه وزوجه منها،فهبط أرض الهند - كما يقال-فكذلك هو الآخر الذى أزَلَّه الشياطين عن المكانة المرموقة،فألقي من جنته إلى محابس الهند . ويقول أبو العلاء :

بهنــد أوفتــادم جــون آدم زِ جَنـَّت
بِتَــأوِيلُ وتلبيس بُهتَــانِ مُنكــر

نَـه كَـندُم جشيِده نه آوُردِه عِـصيان
نَـه مَـن قــولِ ابليس رَاكردِه باوَر

اكــر كَـندَمِـى بُد هَـمِـى جُرمِ آدَم
هَـمه جُـرم مَـن أَز جــوِى هست كمتر

بَلاَىِ مـن آمــــد همــــه دَانِـشِ من
جُـون رُوبـَاه رَامُـو ، وَطَـاؤس رابر

ومعناه : (١) قد هبطت الهند كآدَم حين أزلّه الشــيطان عن الجنة بِحِيَـلِ التأويل والتلبيس والبهتان المنكر .

(٢) أما أنا فما أَكَلتُ الحنطة،ولا عصيت،كما أننى لم أؤمن بمــا قال لي إبليس اللعــين حيث أراد زلَّتى !

(٣) إذا كان ذنب آدم هو أكل حبة واحدة من الحنطــة ، فإن ذنبى لم يكن إلا أقــلّ من حبــة الشعير !

(٤) ان السبب الذى ابتليت به وسقطت فى المحنة إنما هو ذكائي اللامع ، وعلمي الموفور ، فمثلى مثل الثعلب الذى يشبه جلده جلد النمر فيظنه الناس النمر الصغير، أو مثل الطاووس لذى يجر عليه البلاء أجنحته !

بين الأهل والأصدقاء :

على الكل ، فقد ظل الشيخ أبو العلاء اللاهوري يكابد آلام السجن وشدائده ، ويعالج هموم الحياة ونوائبها ،لمدة لا تقل عن ثمانية أعوام ، حتى زار السلطان إبراهيم الغزنوي الأقاليم الهندية للسلطنة الغزنوية وذلك فى سنة ٤٧٢ هـ فذكر له أن أبا العلاء عطاء بن يعقوب المسكين لا يزال فى السجن منذ ثماني سنوات ، وأنه برئ لا ذنب له،فعفا عنه السلطان وأطلق سراحه وخلّى سبيله .

واستقر الشاعر الكاتب أبو العلاء بمدينة لاهور واختارها منزلا ومفزعاً ليقضي فيها ما بقي

من أيام حياته المقدّرة ، وإقامته بهذه المدينة العريقة ليست بقصيرة،وإنما تمتدّ إلى ما يقرب من عشرين عاماً وهى مدة طويلة جداً . إلا أننا لا نعرف كثيراً عن هذا الطور الأخير من حياة أبى العلاء،غير ما جاء من الإشارات الخفية فى كتب التراجم والسير، من أن مدينة لاهور كانت قد أصبحت عاصمة ثانية للدولة الغزنوية،ومركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية حيث اجتمع فيها المحدثون والعلماء من أمثال الشيخ المحدث إسماعيل الغزنوي، والشيخ المتصوف والعالم الموحد أبى الحسن علي بن عثمان الهجويري والأدباء والشعراء والكتّاب من أمثال أبى الفرج الروني،وأبى محمد الأرشدي . ومسعود سعد سلمان اللاهوري،وغيرهم..وكان بينهم وبين أبى العلاء اللاهوري صداقة وصلات طيبة والظاهر أنه كان خلال هذه المدة يقرض الشعر ويحضر المجالس الأدبية يجتمع فيها بأصدقائه من الشعراء والأدباء والكتاب .

وفاته :

وتوفي الشيخ أبو العلاء عطاء بن يعقوب الغزنوي اللاهوري في سنة ٤٩١هـ بمدينة لاهور، ودفن بها على أصح الأقاويل . وقد ذكر بعض المؤرخين من أمثال (هدايت) في مجمع الفصحاء ، أنه توفي في سنة ٤٧١هـ وهو غير مصيب لأن العلامة محمد العوفي قد ضبط تاريخ وفاته، فقال: إنه مات في (سنة إحدى وتسعين وأربعمائة) ، وقد مرّ أن أبا العلاء كان حيّاً مسجوناً في سنة ٤٧٢هـ حين زار إبراهيم الغزنوي الهند في تلك السنة نفسها ، وما ذكرناه من تاريخ وفاته هو المختار عند جهابذة العلم والفن ، والله أعلم بالصواب .

آراء أهل العلم في شخصيته ﷺ

ولبعض أهل العلم آراء فى شخصية أبى العلاء عطاء بن يعقوب اللاهوري وثناء عليه،وإعجاب بعلمه وفضله ومكانته ، ونرى الجميع ، منهم الذين رأوا رأيهم فيه ، يشيدون بذكره ويقدرون خدماته الفائقة ومجهوداته الجبارة التى بذلها من أجل العلوم والآداب والثقافة،أو من أجل أصدقائه وإخوانه والقيم الخلقية العليا،وأن هذا الاهتمام بشخصيته من أهل العلم وتقديرهم له إنما يدل على نبله وكرمه ومكانته وشرفه فى الأوساط العلمية والثقافية والأدبية المعاصرة بمدينة لاهور فى العصر الغزنوي .

ومن هذه الآراء القيمة فى شخصية أبى العلاء اللاهوري ما قاله أخلص أصدقائه وأوفاهم له الشيخ الأجل والشاعر النابغة مسعود سعد سلمان اللاهوري فى إحدى قطعاته الشعرية ما معناه :

« يا عطاء بن يعقوب ! أنت الذى أُضيئَت به دنيا العلم والأدب وتلألأت سماؤها ! إنك

أنت مكان الشمس بالنسبة الينا ، أما نحن بالنسبة اليك فاننا ذرات حقيرة ، وأهبـاء متطـايرة من الغبار ! والآن ، وقد باعد الزمان بينك وبيننا وتفرقنا أيادى سبا ، قد حرمنا من رؤيتك وحنانك وعطفك علينا ، فكأننا الآن ذرات حقيرة قد حرمت من أضـواء الشمس ودفئهـا وتتخبط فى دياجير الظلم والحرمان وليس من يهتم بنا أو يقضى بيننا بالعدل ! »

وقد ذكر الأديب الفاضل محمد العوفي مؤلف (لباب الألباب) ولقّبه (بالعميد الأجل وأفضل الناس فى عصره) فقال ما معناه : « ان العميد عطاء ابن يعقوب قد كان عطية من العطايا النادرة التى جادت بها السماء على الأرض ، إنه كان عميـداً قد مكّنه الله على مكانة كبيرة من العلم والفضل وكان قـد أوتي من المعـانى العميقة النادرة إلى جانب اللفظ الجميـل كاللآلى الثمينـة التى تحلو للأسماع والآذان ! »

ومن المشيدين بذكره المثنين عليه الشيخ (هدايت) صاحب (مجمع الفصحاء) الذى يقول عنه ما معناه :

« إن العميد الأجل أبا العلاء عطاء بن يعقوب قد كان من أعظم أعاظم الزمان، وأفضل أفاضل العصر وكان فاضلا فصيح البيان وشاعراً رشيق اللسان، ولسنا من المبالغين إذا قلنا إنه كان عميداً من عمداء العلم والفضل، وعطية فريدة بديعة من العطايا الربانية . فكأن الله قد خلقه زينة للعلم ومنحة لأهله، ولم يكن أحد بين فصحاء العرب والعجم فى عصره من استطاع أن يجيد اللغة العربية والفارسية كما كان يجيدهما، وأن جميع البلغاء المعاصرين له فى العرب والعجم كانوا بُكماً فى حضرته، وكانوا يثنون عليه ويقدرونه غاية التقدير ! »

ويقول عنه صاحب (سر السرور) القاضي محمد بن محمود الغزنوي :

« إذا اجتمع الأفاضل في مضمار التفاضل واتزنوا بمعيار التساجل وميزان التسابق ، كان هذا الشيخ هو الأبعد احضاراً والأرجح مقداراً . أقر له بالتقدم رجالات الآفاق وأذعن له بالترجيح فضلاء خراسان والعراق حتى أشرق شمساً وهم بين كوكب وشهاب ، وأعذب بحراً وهم بين نهر وسراب، يجلو عليه الفضل نفسه في معرض الإحسان،ويناغيه أهل الفضل بلسان القصور والإذعان ، وتشرئب إلى قلائده أجياد الأنام، وتتباهى برسائله مواقع الأقلام ! »

بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَسْعُودِ اللاهُورِي

ومن أمثال العرب السائرة قولهم : جليسُ المرء مثلُه وأيضاً يقولون : من عرف بشيء نسب إليه ! وهذا مما يطبق على أصدقاء الرجل وأصحابه وأخلاّئه وزملائه الذين نشأ بينهم وترعرع وعاش فيهم،واكتسب منهم، تأثر بهم وأثر فيهم فعرف بهم،وعرفوا به وهو مما لا شك فيه ولا ريب،لأن التجارب البشرية قد حققته والتاريخ الإنساني قد أثبته عبر العصور !

فإذا كان كذلك فإن أصدقاء أبى العلاء عطاء ابن يعقوب اللاهوري وأخلاّءه وزملاءه لجديرون باهتمامنا،حتى نعرفهم،وبالتالى نعرف شخصية أبي العلاء ومكانته فى المجتمع الإسلامي في العصر الغزنوي.إن الرجال الأصدقاء لأبى العلاء قد كانوا غرراً فى جبين الدهر،وقدوة فى المكارم والمحاسن،وكانوا كراماً وأئمة وأعلاماً،وعن هؤلاء يقول أبو العلاء اللاهوري :

قد كان دهرى جنة فى ظلهم
ساروا فأضحى الدهر وهو جحيم

قد خانهم صرف الزمان لأنهم
كانوا كراماً والزمان لئيم !

ومن هذه النخبة المختارة لأصدقاء أبى العلاء : منصور بن سعيد الغزنوي وأبو الفرج الروني ومسعود اللاهوري ، أما الأول فقد علت به الكفاءة،ورفعته الأقدار،وساعده حظه حتى أصبح وزيراً ناجحاً من وزراء السلاطين الغزنويين ، وأما أبو الفرج الروني فقد ذاع صيته،وامتازت مكانته بين الشعراء المعاصرين له،حتى حاز إعجاب السلطان إبراهيم الغزنوي فقربه،وأفاض عليه من خزائنه،وجعله من خاصته ونال منصب شاعر البلاط ، وأما الثالث وهو مسعود اللاهوري فقد نال مكانة فى تاريخ الآداب العربية والفارسية لشبه القارة مالم ينله أى شاعر غيره سواء كان فى عصره أو فى العصور التى تلته ! فقد قدر لهذا الشاعر العظيم أن يحظى بمنصب

الأوّليــة فى انتــاج الشــعر من الطراز الأول فى اللغات الثلاثة : العربية والفارسية والهندية !

وكان أبو العلاء أحب الناس إلى مسعود سعد اللاهوري،كما أن أبا العــلاء كان يحب مسعوداً أكثر مما كان يحب الآخرين من أصدقائه ويفضله عليهم،فقد كانا صديقين وَفيـِّين،جمع الحب بين قلبيهما على أسس الإخلاص والوفاء المتبادل،وقد سجل مسعود فى شـعره الفارسي كثيراً من الملامح والمشاهد والوقائع من هذه الصداقة الخالدة التى ربطت بينه وبين أبى العلاء اللاهوري،فمن ذلك قوله يذكر أصدقاءه الثلاثة أبا العلاء وأبا طاهر عمر الغزنوي والشيخ منصور بن سعيد الوزير الغزنوي :

أَى رَفيِقَانِ من أى عُمَرْ ومنصورْ وعطـا

كه شـمـا هَرسه سمائِيد وهوَائِيد وصبا

ومعناه : ألا يا أصدقائي الأعـزة ! يا عمـر ومنصور وعطـاء ! أنتم الثـلاثة بالنسبة اليّ كالسماء والهواء والصبا !

ويقول له فى مكان آخر من ديوانه الفارسي :

عطـاى يعقـوب أى رُوشَن آزتُو عَالِم عِلم
توآفتـــابى ومـــــا ذَرّه را هَمِى مَانِيم

ويعنى به : أيا عطاء بن يعقوب ! ذلك الذى أضاء العالم ونَوَّرَه بعلمه الغزير ! أنت شمس ونحن ذرّات حقيرة بين يديك !

ولمسعود هذا قصيدة فارسية رائعة رثى بها صديقه الحميم أبا العلاء عطاء بن يعقوب اللاهوري ولا نرى بأساً فى أن نورد ستة أبيات من هذه القصيدة الطويلة :

از وفـــات مــــير يعقـــوبم
تــــازَه تَرشُـــد وَقَاحت عالم

كَوهَرِى بُود در هنــــــركه أزو
فخــــــر مى كـــــرد كَوهَرِ آدم

بس أزُو روز فضــل ودانش وعــلم
نَبُـــود هِيــــج رُوشَن وخرّم

خُشك شُـد خُشك مرغَزَارِ أدَب
تِيرَه شُد تِيرَه جــــوئبار حِكَم

تَعزِيَت كى توَانـــد صـــبر
مَرثِيئَت كُفت كَى توَاند غـم

كه نِشَستِـه است وايستادَه بَـه جدّ
نَثـــــر دَر سُوك ونَغلم دَر ماتم

وترجمة الأبيات كما يأتى :

١) إن وفاة سيدنا عطـاء بن يعقـوب قـد جددّت وقاحة هذه الدنيا، وكشفت عن قلة حيائها وعدم مبالاتها بالكرام .

٢) إن أبا العلاء عطاء بن يعقوب قـد كان جوهرة فى دنيا الفضل والفن، تلك الجوهرة التى يفتخر بها بنو آدم !

٣) ومنـذ أن مات لم نر الفضـل والحـكمة والعـلم مضيئاً مسروراً ! كل ذلك يعـانى من الحزن والألم وفقد رونقه وبهاءه بموته !

٤) قد ذبل وجف مَرَجُ الأدب واسودّ نهر الحكم بموت هذا العالم الأجل !

٥) إنه لا صبر بالتمــازى ولا تخفف المراثى الهموم .

٦) إننا نرى النثر والنظم يقومان ويقعدان حزناً وقلقاً فى مأتمه !

وقد ولد شــاعرنا الفــذ مسعود بن سعد بن سلمان اللاهوري عام ٤٣٨هـ (١٠٤٦م) بمدينة لاهور،وكان مفخرة من مفاخرها الخالدة وغُـرة من الغرر المتلألئة فى جبينها وكان فى قمة الشعر الفــارسي،وكان يتقن الفارســية نثراً وشــعراً وديوانه الفارسي الكبير مطبوع متداول،ويعترف الإيرانيــون أنفسهم بفضله وعلو كعبه فى لغتهم وآدابها،كما أنه كان يجيــد العربيــة والهنــدية ويقــول الشعر بهما . ويقــول عنــه (حسّان الهند غلام علي آزاد البلكرامي)فى سبحة المرجان: « وهو مثلى (أى مثل مؤلف سبحة المرجان) عارف بالألسنة الثلاثة وصاحب ثلاثة دواوين : العربي والفــارسي والهنــدي وأنا صــاحب الديوانين العربي والفارسي ومالى فى الهندي ديوان ولكنى

ماهر فى الشعر الهندي ودقائقه ... وأما الديوان العربي والهندي لمسعود فطـارت بهما العنقـاء وفرقت أوراقهما النكباء ! »

وأما آباء الشـاعر مسـعود سـعد سـلمان اللاهوري فأصلهم من مدينـة همدان،ثم هاجروا إلى غزنة عاصمة الغزنويين،ثم منها إلى لاهور التى اتخذوها مستقراً ومقاماً،وكانت أسرة الشـاعر أسرة علم وأدب، يتحمس أهلها لدينهم ويدافعون عنـه،وكانوا يعنون بالعلماء وينفقون عليهم من مالهم ، وكانوا يشغلون المناصب الحكومية الكبيرة فى عهد السلاطين الغزنويين . أما أبوه سـعد بن سلمان اللاهوري فقـد كان من أعيـان الدولة الغزنوية والجاه،وقد ظل سعد يحتل منصبه الكبير هذا لفترة طويلة جداً .

وكان مولد مسعود بلاهور المدينـة التى ولع بهـا وأحب جـوها وبيئتهـا ، وأعجب بجمالها الطبيعي واعتـد بتقاليـدها،وافتخر بأمجادها ، وقد نظم شعراً جميلا أشـاد فيـه بمكان ميلاده

بصورة تألق فيها حنين الواله،وهو شعر الحنين إلى الأوطان ليس له نظير فى الشعر الفارسي الهندي كله .

وقد عمَّر مسعود اللاهوري طويلاً،وشهد عصر ستة من الملوك الغزنويين ، وكان قد احتل فى ظلّ بعضهم المناصب الحكومية العالية،كما مر فى عهد البعض منهم بمحن شديدة، وكان السلطان إبراهيم الغزنوي قد اختاره معلماً خاصاً لابنه ، إلا أن البعض من أعداء الشاعر وشى به عند السلطان بأنه يدبر مؤامرة سرِّية ضده مع السلطان ملك شاه السلجوقي ، فحبسه السلطان إبراهيم الغزنوي فى قلعة بقي فيها عشرين عاماً .

وخلال هذه المحنة الشديدة كان الشاعر قد نظم شعراً حزيناً باكياً،شرح فيه ما كان يقاسيه من آلام السجن ، ومؤامرة الأعداء وغدر الأصدقاء ، والحزن على بُعده من لاهور ، مسقط رأسه ، ومجال حبه ووداده ، والواقع أن شعره هذا من أروع شعر الأسر الذى يصور

حـــزن المسجونين وآلامهم ويرسم صـــورة محزنة لكربة المكروبين .

وتوفي هذا الشاعر العظيم والإنسان الفذ عام ٥١٥هـ (١١٢١م) بمدينة لاهور ودفن بها .

أما شــعر مســعود ســعد ســلمان اللاهوري بالعربية فهو يحمل طابعاً خاصاً ويمتاز بأسلوبه اللبق البليغ،وسلاسة الألفــاظ وعمق المعــانى ومعظمه فى الصنائع والمحسنات البديعية كالتورية والإيهام، وهو خال عن التكلف البارد والتعسف العقيم ، ويقول العــلامة رشيد الدين الوطواط فى كتــابه (حــدائق الســحر) معلقاً على شــعر مسعود اللاهوري . إنه شــعر لطيف سلس جامع لم يبــلغ شــأوه أحد من شــعراء العجم فى ذلك الوقت .

ومن صنعة التــورية والإيهــام قوله فى وصف الليل الطويل :

وليـــل كأن الشمس ضـــلت ممـــرها
وليس لهـــا نحـــو المشـــارق مرجع
نظـــرت إليـــه والظـــلام كأنـــه
عـلى العـــين غِربان من الجـــوّ وقـع
فقـــلت لقـــلبى طال ليـــلى وليس لى
من الهمّ منجـــاة وفى الصـــبر مفزع
أرى ذنب السرحان فى الجـــوّ ســـاطعاً
فهـــل ممكـــن أن الغـــزالة تطلع ؟!

وله فى وصف الليل أيضاً وهو من الشعر ذى القافيتين :

يا ليـــلة أظلمت علينـــا ليـــلاء قارية الدجنـــه
قد ركضت فى الدجى علينا دهمـــا خـــدارية الأعنـــه
فبت أقتاســـها فـــكانت حبـــلى نهـــارية الأجنـــه

ومن صنعة تسمى حســـن المطلع قوله يمدح ملكاً فاتحاً :

ثق بالحســـام فعهـــده ميمـــون
أبـــداً وقـــل للنصـــر كن فيكون !

وهو القائل :

لزمت سجنـــا والباب مغـــلق دونى
وليس يفتـــح دون المهيمن الفتاح

نشره

وقد كان أبو العلاء الغزنوي اللاهوري هذا واسع الثقافة ، وافر المعرفة ، وله مشاركة في الأدب والشعر والفنون العربية الأخرى المتداولة في عصره ، فإننا نرى أن المصادر الأدبية عن العصر الغزنوى وأصحاب التراجم والسير يذكرونه كعميد من عمداء الإنشاء والترسل ، وهذا اللقب الضخم الكبير لم يكن يستحقه من الكتاب المترسلين والأدباء الناثرين إلا من اضطلع فى الأساليب الإنشائية المتنوعة، وبلغ الغاية القصوى من الثقافة والمعرفة ، وفاق أقرانه فى كثير من المحاسن والمفاخر والمزايا .

وكذلك فإن الرجل كان ذا أدب غزير جدير بالدرس والمطالعة والعناية والاهتمام ، وقد عرف بين معاصريه وفى كتب التراجم ككاتب مجيد، وشاعر عظيم ذى الديوانين العربي والفارسي، وأن جميع المؤلفين الذين ترجموا له أو كتبوا عن أدبه وثقافته ، لم يفتهم أن يلقبوه بالشاعر الكاتب والعميد الأجل"، فهذا هو

القاضي معين الدين محمد بن محمـود الغزنوي صاحب (سِرُّ السرور) يقـول عن اشـتغاله بالترسل والإنشاء وقرض الشعر وإنشاده :

« ولم يزل منـذ شبَّ إلى أن اشـتعل الشيبُ برأسه،ورسب قَذَى العمـر فى آخر كأسـه بين اقتباس يصطاد به وحوش الشوارد ، واقبـاس ينثر منه لآلى القلائد ، وإبداع صنعة في الشعر ما جمَّش الأديب بأطرفَ من بدائعها،واختراع نادرة ما أُتحِف الفضل بأطرف من روائعها » .

وهذا مما يدلّنا على أن الرجل كان على جانب رفيع من العـلم والثقـافة والنظـرة الأدبيـة السليمة ، كما أنه كان يتمتع بمكانة فى الشعر لم تكن تقلّ عن مكانته فى النثر باللغتين العربية والفارسية . إلا أننا . لسوء الحظ : لا نعثر على دواوينه الشعرية والإنشـائية بهاتين اللغتين ، وليس لدينا من النماذج الشعرية والنثرية لهذا الشـاعر الكاتب . إلا ما أورده محمد العوفي فى (لباب الألباب) وأبو الحسن الباخرزي فى (دمية

القصر) والشيخ « هدايت » فى (مجمع الفصحاء) أو ما سجّله القاضي معين الدين محمد الغزنوي واحتفظ به ياقوت الحموي فى (معجم الأدباء) . وهذا الذى أورده هؤلاء المؤلفون الكبار فى كتبهم هو يشمل المقتطفات الشعرية القليلة ، إلى جانب المقتبسات النثرية النادرة ، أما ديوانه العربي والفارسي ورسائله النادرة فقد طارت بها العنقاء ، وأبادتها يد الأيام وعصفت بها الرياح فصارت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً !!

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى المدرسة الإنشائية التى كان يتبعها أبو العلاء فى الترسل والإنشاء قبل أن نخوض فى الحديث عن أسلوبه الأدبي ، ونتناول نماذجه النثرية التى احتفظت بها المصادر والمراجع التى ترجمت له ، وقد عاش هذا العميد الأجلّ ، والكاتب المجيد فى العصر الذى تَلاَ عَصرَ الكُتاب الفطاحل والبلغاء العباقرة من أمثال أبى الفضل بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني المتوفى فى ٣٩٨هـ ،

وأبى بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفي فى ٣٨٣هـ وغيرهما .

وقد كانت الكتابة العربية بسيطة جداً فى عصورها الأولى،ولكنها بمضي الوقت ، وتطور الدولة وتقدم اللغة صارت كتابة الرسائل صناعة فائقة ، تستدعى التأنق والتنميق ، والبراعة والكمال إلى جانب إظهار القدرة الإبداعية ،وإبراز العبقرية الفنية ، وبدأت طبائع الكتّاب المترسلين تميل إلى السجع والقافية فى الرسائل الديوانية والإخوانية ،حتى دخل القرن الهجري الرابع ، وهو من أزهى العصور وأفخرها للنثر العربي ، والكتابة الأدبية فى تاريخ لغتنا العربية وآدابها ، وظهر على أفق الأدب العربي وعلى مطلع الترسل والإنشاء الكاتب البليغ والأديب النابغة أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني وأضرابه وفى عصر الهمذاني ، تبوّأ السجع المرتبة الأولى والمكانة العليا فى كتابة الرسائل ، وبذلك أخذت

الرسائل المسجوعة المنمقة تحتل نفس المكانة فى النثر الفني التى كانت القصائد الشعرية البديعة تحتلها فى شعر الشعراء ، فاتجه نشاط الأدباء والكتّاب إلى النثر ، وأخذوا يظهرون فيه البراعة ويحققون الكفاءة ، ويتكلفون فيه الكثير من التنميق والإجادة ، وغلب عليهم الزخرف والتفنن والتلاعب بالألفاظ وجرت بينهم المساجلات الطريفة ، تركت لنا الروائع من الرسائل الاخوانية والديوانية على السواء !

قلنا إن الرسائل المسجوعة المنمقة كانت قد أخذت تحتل المكانة التى كانت القصائد الشعرية تحتلها فيما مضى من العصور، بل إن النثر كان قد بدأ يأخذ خصائص الشعر .وأخذت الرسالة تحتل أغراض القصيدة فى الموضوعات التى كان الشعر يطرقها مثل المدح والهجاء والتعزية والرثاء والعتاب والاعتذار والاستعطاف والوصف والنصح والحكم والودّ والصداقة ، بل أضيفت إليها أشياء لم يكن الشعر يعرفها

كالكدية والاستجداء والمناظرة والمساجلة والشئون العامة وغيرها من الموضوعات .

فهذا هو العصر الذى تلاه عصر أبى العلاء اللاهوري وهذا هو النوع من النثر الذى كان يعالجه أبو العلاء . وأما النماذج من نثره الذى وصل إلينا منه بعض المقتبسات والمختارات فى كُتب السير والتراجم لرجالات العلم والأدب لهذا العصر فانها وإن كانت قليلة نادرة جداً ، إلا أننا نستطيع من خلال هذا القليل النادر أن نعرف مكانة الرجل بين الكتّاب المترسلين والأدباء الناثرين فى عصره،كما أننا نتمكن من تقدير هذا النثر العربي وتقويمه، فهو يعطينا صورة واضحة ـ وإن لم تكن كاملة ـ عن قدرته وعلوّ مكانته فى لغة الناطقين بالضاد ومعرفته الشاملة بقواعدها وأساليبها المتعارفة المتداولة فى عصره . إن هذه الآثار النثرية الجميلة تدل دلالة واضحة على موهبة الرجل وطبعه الخصب الفياض،كما تدل على مجهوداته الجبارة المثمرة

التى بذلها فى خدمة اللغة العربية وآدابها فى هذه المنطقة النائية البعيدة عن البلاد العربية موطن العربية الأصلي ومهدها العريق !

فمن النماذج النثرية لأبى العلاء عطاء بن يعقوب الغزنوي اللاهوري قوله يشكو جور الزمان وغدره بأهله ،ويذكر ما كابده على أيدى بعض الوشاة والخونة من أصدقائه وزملائه فى لاهور،ثم تحوله منها إلى مدينة المولتان من مدن باكستان المعروفة كأسير مقيَّد :

« منذ تورّدتُ هذه الناحية لم يرد عليَّ سحابة أروى بها كبدى الصادية . وأجلو حالى الصادئة . وأستظهر بها على دهر يقصدنى حيثما قصدت . ويضربنى أينما ضربتُ . ولم أخلص بعد من ألسنة أبنائه فى ذلك الحيّ حتى ابتليتُ بأسنة بناته فى هذا الفيّ،وطلَعت علينا عارضة داجية الجوّ باكية النوء،وأمطرتنا مطر السوء بوفاة الظعينة المسكينة . فتضاعف سقم برَّحَ بى فلا يَبرَح،وترادف ألم ألحّ

عليّ ، فلا لَحلَحَ ، وما حالَ أفق أفل نهاره ، وروض ذبلت أزهاره ، وقلب زال قراره ، وخِلب زاد أواره ، وكُثَيِّر فارق عَزَّته ، ثم فقد عِزّته ، والمصيبة فى الغربة أقطع ، ونَكءُ القَرحِ بالقَرح أوجع !

وأكثر ما جرّ عليّ هذه الفادحة تطيرى بفلان ، فإنه بكَّر عليّ يوم النَّوروزِ متأبطاً طوماراً أطول من يوم الحشر ، قد أربىَ ذراعاً على العشر ، يضيق عنه نطاق النشر ، ملأه نظماً ونثراً فى مرثية جارية له قد ماتت منذ خمسين سنة ! ذكر فيه غُرّتها ونُعَرَتَها وطرّتها ودَرّتها وعمرتها وخمرتها ، وسرّتها وضُرتها تَتَشفَّعتُ إليه ، وتضرّعت بين يديه ، وقلت له : أَنشُدُكَ الله إلا طويته وأدرجته ، وأدخلته من حيث أخرجته ! فأبى إلا جماحاً فى المسحل ، سلّ مقولا كالمعول ، وجعل يكيل من تلك الأهواسِ ، إذا قرأ سطراً أعاد إلى الرأس ، يحكى أساطير الأولين ، ورفع العويل والأنين ،

وأرسل المخاط والذنين . كلما قال لفظة سعل ، وأخرج من قعر حلقه جعل . وأنا أنزوى كما تنزوى الجلدة فى النار . وألتوى كما تلتوى الحية على الأوار . لا يمكننى أن أقرّ ، ولا تركن حتى أفرّ ، إلى نصف النهار . ولم ينَصُف بعد الطومار . وقمنا إلى المفروض . بعد النهوض . ولما انفصلت من ذلك المكان وصل كتاب التحوّل إلى (المولتان) وحمت المسكينة فى الحال ووقعنا فى الأوجال . والله نصيرى على الزمان والاخوان وحسيبى . وقد قل منه ومنهم حظى ونصيبى ! »

ولعل السجع الذى لاحظناه فى هذه الرسالة الإخوانية لأبى العلاء اللاهوري الذى يسير على درب الكتّاب المترسلين المعاصرين له ، من أروع النماذج الإنشائية وأجملها لهذا الشاعر الكاتب والعميد الأجلّ، وهى تحمل من المعانى الإنسانية الموفورة إلى جانب الأسلوب البديع المفعم بالموسيقى اللفظية والمحسنات البديعية الفائقة .

ومن رسائل أبي العلاء اللاهوري الإخوانية الجميلة رسالة طريفة رائعة، بعث بها إلى أحد الوزراء في وقته وكان من أصدقائه وهي مليئة بالمصطلحات النحوية التي استخدمها أبو العلاء لتعبيرات نادرة بديعة، وهي مما يدل على براعة الرجل، وولوعه بقواعد اللغة العربية، وقدرته على استخدام المفردات اللغوية لأكثر من معنى :

« أطال الله بقاء الشيخ في عزّ مرفوع كاسم كان وأخواتها، إلى فلك الأفلاك، منصوب كاسم إن وذواتها، إلى سمك السماك، موصوف بصفة النماء، موصول بصلة البقاء، مقصور على قضية المراد، ممدود إلى يوم التناد، معرّف به، مضاف إليه، مفعول له، موقوف عليه، صحيح سالم من حروف العلة، غير معتل ولا مهموز همز الذلة، يثنّى ويجمّع دائماً جمع السلامة والكثرة، لا جمع التكسير والقلّة ساكن لا تغير يد الحركة، مبني على اليُمن والبركة، مضاعف مكرّر على تناوب الأحوال، زائد غير ناقص

على تعاقب الأحوال ، مبتدأ به خبر'ه الزيادة' ، فاعل مفعوله الكرامة ، مستقبله خير من ماضيه حالا ، وغده أكثر من يومه وأمسه جـلالا . له الاسم المتمكن من إعراب الأماني ،والفعل المضارع للسيف اليماني ،لازم لربعه لا يتعدّى ولا ينصرف عنه إلى العـدى ، ولا يدخـله الكسر والتنوين أبداً . يقرأ باب التعجب من يراه ، منصوباً على الحـال إلى أعلى ذراه ، متحركاً بالدولة والتمكين منصرفاً إلى ربوة ذات قرار ومعين !

«وهذا دعاء دعوت له على لسان النحو ، وأنا داع له بكـل لسـان عـلى هـذا النحـو ، ولولا الاحتراز' العظيم من أن يملّ الأستاذ الـكريم لسردت أفـراده سرداً ، وجعلت أوراده ورداً ، وجمعت أعداده عَقداً ، ونظمت أبداده عِقداً ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ! »

ومن روائع الحـكمة والنصيحـة فى رسـائله

الإخوانية هذه القطعة النادرة من احدى رسائله التى يقول فيها :

« الصحبةُ نسبة فى شرع الكرمِ ، والمعرفة عند أهل النُّهى أوفى الذمم ، والأخوةُ لحمة دانية ، والمصافاة قرابة ثانية ، ولو كان ما بين ذات البين ما بين القطبين لوجب أن يقطعا عرض السماء كالمجرّة مواصلة ، ويتصلا اتصال الكواكب مراسلة ، ولكن الأقوال فى العقوق سواسية ، والقلوب فى رعاية الحقوق قاسية ! »


شعر

وكان أبو العلاء اللاهوري ، مع طول الباع وعلوّ المكانة فى عالم الكتابة والإنشاء ، يجيد الشعر باللغتين العربية والفارسية . ومن دأب الكتّاب المترسلين أنهم كانوا يزينون صدور رسائلهم أو أوساطها بالمختار من الشعر سواء كان ذلك من بنات أفكارهم أو لغيرهم من الشعراء المفلقين ، كما أنهم كانوا لا يرون ثباتاً وجدارة لمكانتهم الأدبية إلا اذا جمعوا الشعر إلى النثر ، وكانوا يتصنعون ويتكلفون فى ذلك كثيراً ومن هنا نشأ صنف ممتاز من الشعر باللغة العربية قد اصطلح النقاد العرب على تسميته (بشعر الكتّاب) ومعظمه لم يكن على شىء من الرونق والجمال .

وأما شعر العميد الأجلّ أبى العلاء اللاهوري سواء كان بالعربية أو الفارسية فإنه ليس من هذا القبيل ، إنه لم يكن شاعراً متكلفاً ، وإنما كان شاعراً مطبوعاً ، وكان شاعراً متفنناً قبل أن يكون كاتباً مترسّلا ، إن شعره الذى وصل

إلينا جيّد رصين كله ، وهو يجمع بين رِقّة الأسلوب اللفظي وسلاسته وبين دقّة التعبير المعنوي ولطافته، إلى جانب التشبيهات النادرة الطريفة ، والاستعارات البديعة الجميلة ، وليس فيه التكلف البارد ، أو التصنع الفارغ الذى يتسم به شعر الكثيرين من أضرابه ومعاصريه من الشعراء الكتّاب فى العصر الغزنوي .

وأما الموضوعات الشعرية عند أبى العلاء اللاهوري فهي لا تختلف عن الموضوعات المتعارفة المتداولة فى عصره من الوصف والمديح والرثاء والغزل والزهد والهجاء ، وقد كان ضليعاً خبيراً بالصناعات الشعرية والمحسنات البديعية .

وقبل أن نخوض فى دراسة شعره يجدر بنا الاشارة إلى أن اللغة الفارسية كانت قد أخذت تحل محلّ اللغة العربية كلغة رسمية للبلاد ، كما أنها كانت قد أصبحت أداة التربية والتعليم والثقافة ، وكان المثقفون من الشعراء والكتّاب والأدباء والعلماء يجيدون اللغتين شعراً ونثراً ،

وهذا مما اكتسب لشعراء هـذا العصر وأدبائه لقب « ذوى اللسانين » أى شعراء اللغتين وأدباؤهما ، ومنهم صاحبنا أبو العلاء اللاهوري الذى كان قد أخرج ديوانين ، أحدهما باللغة العربية والثانى باللغة الفارسية وفى ذلك يقول القاضي معين الدين محمد بن محمود الغزنوي :

« وقد سافر كلامه من غزنة إلى العراق ، ومن ثم إلى سائر الآفاق ، حتى أننى حُدِّثت أن ديوان شعره بمصر يشترى بمائتين من الحمر الراقصات على الظفر ، والمشهور أن ديوان شعره العربي والفارسي يُشتَرى بخراسان بأوفر الأثمان وكيف لا ، وما من كلمة من كلماته إلا وحقها أن تملك بالأنفُس وتُقتنى ، وتباع بالأنفَس وتشترى ! »

ومن طريف شعره يصف شجرة الياسمين ويقول:إن هذه الشجرة مسكينة جداً ، حيث تركَّب اسمها من كلمتين عربيتين أحدهما «اليأس» والثانية «المين» فهو يتشاءم بها قائلا :

إليــــــك اليـــــاسمين الغض عني

إليـــــك فإن فيـــــه شـــــر فـــالِ

فنصـــــف منـــــه ياس مـــن وصــــــال

ونصـــــف منـــــه مَين من خيـــالِ !!

ويروى العلامة أبو الحسن الباخرزي صاحب (دمية القصر) أن الشعراء المعــاصرين كانوا يهــدون قصــائدهم للأســتاذ العميد أبى العلاء اللاهوري ، ويفتخرون بذلك وخاصة إذا علَّق على شعرهم وأبدى فيه رأيه ، وفى بعض الأحيان كان الأســتاذ العميد يعلق عليــه شعراً ويصف القصيدة وصفاً جميلا رائعاً ، ويقول الباخرزي أن شاعراً من أصدقائه أهدى له قصيدة فأعجب العميد بها وأخذه الاهتزاز فقال هذه الأبيــات التالية وبعث بها الى صديقه :

نظمــــك المعجـــــز المبـــــارك فـــالا

قـــــد ســــقانا من عينـــــه سلســـــالا

فروينـــــــا وما روينـــــــا ولــــــكن

قـــــد شـــــفينا به القـــلوب النهـــالا

وَاجتَبَينــا لآلى العقــد منــه

وَاجتَنَينــا الســعود والاقبــالا

رقّ لفظــةً فقيــل خمــر حــرام

راق معنى فخيــل ســحراً حــلالا

وبعد أن يروى الباخرزي هذه الأبيات ، يعلق عليها قائلا : « قلتُ : هذا روقٌ رائق ، وفوقَ فائق ، وغــزل مغــازل » وأرى أن هذا التعليق يغنينا عن المزيد ، ولا نحتاج الى أن نضيف شيئاً إلى ذلك !

وله من هذا النوع أبيات أخرى لا تقل روعة وجمالا من سالفتها ، فيقول وهو يصف شــعراً لأحد الشعراء المعاصرين له :

قريض تجــلى مثل ما ابتسمت « أروى »

ترشفت من فيــه الرضــاب فمــا أروى

تجــلى كأروى فى حجــال ســطوره

وأنزل من شــمّ الجبــال لنــا أروى

كغض شــباب الغضّ غاض بهــاؤه

وعهــد اللّوى ألوى بــه زمن الوى

اذ الدهـر غضٌ ناضرُ العـود ناظرُ

الينـا بمـا يهـوى ولم يلـق فى المهوى

قـريض بـه زادت لقـلبى غـلّة

وغـيرى به يروى الغليـل اذا يروى

وكان إذا دخل مضمار المحسنات البديعية أتى بالعجائب ، وأدهش العقول ومن ذلك قوله :

يا ظبيـة سلّت ظُبى من جفنهـا

تفـرى بهـا أعنـاق آسـاد الورى

ما كنت أدرى قبـل جفنـك أن أجـ

ـفان الظِباء تكـون أجفـان الظبى

ومن هذا الباب قوله :

إذا ما نبـا حـدّ الأسـنة والظُبى

فمـا نابـه فى الحـادثات بنـابِ

تُقصّف رمح الخط وسـطَ كتـائب

إذا هـزَ رَمـح الخط وسط كتـابِ

وله من باب المحسنات البديعية أيضاً :

وكـم حـلّ عَقداً للحـوادث عَقـده

وكـم فـلّ ناباً للنـوائب نابُـه

كمخلب ليث الغاب حَدّاً وحِدَّة
ومخلبُ ليث الفضل والعلم غابُه
إذا صاد ليثُ العنكبوت ذُبابة
فهذا حسامُ صاد ليثاً ذبابُه

وكان الأستاذ العميد أبو سعيد عبد الغفار ابن فاخر البُستي ، رحمه الله ، يروى شعر أبى العلاء ويفتخر بذلك ومما رواه البُستي وأنشده هذه الأبيات التالية يصف بها جمال ممدوحه وفضله وكرمه :

أيا من رآه البد	رُ ظلَّ لوجهه يسجُد
ويَا من غيم نائله	يجود لنا ولا يَرعَد
ويَا من فضله يدنو	ولكن وصفُه يَبعُد
أتذكرنى اذا تخلو :	« ومالى لا أرى الهدهُد » !

كان أبو العلاء الغزنوي اللاهوري ومن على شاكلته من الشعراء فى هذا العصر يقلدون فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ويتتبعون مناهج شعرهم ، وأساليب تعبيرهم ، فمن هذا الضرب

قصيدة دالية أنشأها أبو العلاء على نهج دالية الشاعر العربي المشهور الأعشى الكبير ميمون ابن قيس الذى يقول :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... الخ

وأما دالية أبى العلاء فقد أبادتها يد الأيام ولا نجد منها شيئاً غير البيتين وهما :

أأعبد للدنيا الدنيئة أعبدا
وفضل الهي ماج كالبحر مزبدا
عطاء" حبانا لا يحيط بعدّه
حساب (عطاء) ألف عام مردّدا !!

ومن أروع ما قاله أبو العلاء عطاء بن يعقوب من الشعر باللغة العربية قوله يذكر أصدقاءه وأحبته وزملاءه الذين كان يتمتع بصحبتهم ومجالستهم والحديث معهم ، ففرق الدهر بينهم وتفرقوا أيدى سبا وبقى وحيداً فحزن على هذا البعد والفراق فتدفق طبعه الخصب الفياض قائلا :

اللهُ جــــارُ عصـــابة وَدّعتُهــم

والدمـــع يهمى والفـــؤاد يهيــمُ

قــد كان دهـــرى جنـــة فى ظلهــم

ســاروا فأضحى الدهــر وهو جحيــمُ

كانوا غيـــوثَ ســـماحة وتكــرّم

فاليـــوم بعـــدهم الجفـــون غيـــومُ

رحـــلوا عـــلى رغمى ولــكن حبّهــم

بين الفـــؤاد المســـتهام مقيــمُ

قـــد خانهـــم صرف الزمان لأنهــم

كانـــوا كـــرامًا والـــزمان لئيـــمُ !!

طلقتُ لـــذّاتى ثــلاثًا بعـــدهم

حتى يعـــود العقـــدُ وهو نظيــمُ

اللهُ ـ حيث تحمّلـــوا ـ جار'' لهــم

والأمـــن دار والســـرورُ نديـــمُ

والعيشُ غضٌ والمنـــاهل عَـــذبَةُ

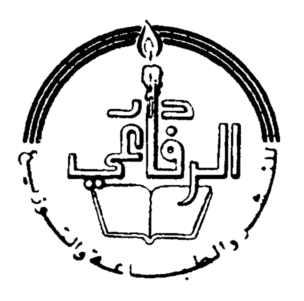
والجـــوّ طَلـــق والرياح نسيـــمُ !

وللشعر باب فى الزهد ومذمة الدنيا الدنيئة والشعراء يطرقون هذا البـاب إذا أساء الزمان إليهم ، وتبرموا أهله وسئموا الحياة الدنيا ولم يفت صاحبنا أن يتطرق إلى هذا الموضوع وقـد مر البيتان من داليته فى ذلك ومنه قوله :

أأحلب من دنيـاي جـدّاء ما بهـا
عـلى كثرة الابسـاس ، درّ ولا جدى
وأسـبح فى بحـر السراب ضـلالة
واترك صداء ، وبى حُرَقُ الصدى !!

■■■

فهرست الموضوعات



المقر الرياض ـ الملز ـ تفرع شارع جرير ص.ب (١٥٩٠)

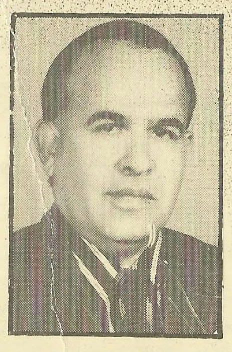
تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ ـ برقية : دار الرفاعي

المملكة العربية السعودية

مطـابع الروضـة ـ جـدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الكاتب بقلمه ..



ه ولدت في قرية تسمى كميكي من قرى إقليم بنجاب في باكستان سنة ١٩٣٧م في أسرة متدينة من الفلاحين فبدأت أحفظ القرآن الكريم على والدي رحمه الله

ه ثم أكملت دراساتي كلها كطالب غير منتظم إلا الدراسات الإسلامية فقد تخرجت من جامعة بنجاب بلاهور سنة ١٩٥٩م ثم نلت الماجستير باللغة العربية في ١٩٦١م ثم ماجستير الدراسات الإسلامية في ١٩٦٢م ثم نلت الدكتوراه في الآداب العربية في ١٩٦٩م من نفس الجامعة.

ه عملت مدرساً للغة العربية فمحاضرا لها فأستاذا جامعيا وذلك منذ ١٩٥٦م حتى اليوم.

ه أجيد، إلى جانب البنجابية وهي لغة أمي، أربع لغات كتابة وحديثا وهي العربية والأردية والإنجليزية والفارسية، ولي ما يزيد من عشرين كتاباً إلى جانب العديد من البحوث والمقالات وأكتب بالصحف والجرائد الأردية والعربية والإنجليزية. [توقيع]

الـ... ...مطابع الروضة ـ جدة